

مجلـــــــــــة

آداب الرافدين

علميّـــــة محكّمـــــة

فصليـــّـــة

تصـــدر عن كليـــة الآداب

العـــدد: الثامن والسبعون

السنـــة: التاسعة والأَربعون

الموصـــــــل

١٤٤٠هـــ / ٢٠١٩م

توجه المراسلات باسم رئيس هيئة التحرير

كلية الآداب / جامعة الموصل – جمهورية العراق

E-mail: adabarafidayn@gmail.com

الرمز الدولي : ISSN 0378- 2887



آداب الرافدين

مجلة محكّمة تعنى بنشر البحوث العلمية الموثّقة في الآداب والعلوم الإنسانية

باللغة العربية واللغات الأجنبيَّة

العدد: الثامن والسبعون	(تموز/ آب/ أيلول لسنة ٢٠١٩)	السنة: التاسعة والأربعون

قواعد النشر في المجلة

- يقدم البحث مطبوعاً بدقة، ويكتب عنوانه واسم كاتبه مقروناً بلقبه العلمي للانتفاع باللقب في الترتيب الداخلي لعدد النشر.
- تكون الطباعة القياسية بحسب المنظومة الآتية: (العنوان: بحرف ١٦/ المتن: بحرف ١٤/ الهوامش: بحرف ١٢)، ويكون عدد السطور في الصفحة الواحدة: (٢٧) سطراً تحت سطر ترويس الصفحة بالعنوان واسم الكاتب واسم المجلة، ورقم العدد وسنة النشر، وحين يزيد عدد الصفحات في الطبعة الأخيرة داخل المجلة على (٢٥) صفحة للبحوث الخالية من المصورات والخرائط والجداول وأعمال الترجمة، وتحقيق النصوص، و (٣٠) صفحة للبحوث المتضمنة للأشياء المشار إليها، تتقاضي هيئة التحرير مبلغ (٢٠٠٠) دينار عن كل صفحة زائدة فوق العددين المذكورين، فضلاً عن الرسوم المدفوعة عند تسليم البحث للنشر والحصول على ورقة القبول؛ لتغطية نفقات الخبرات العلمية والتحكيم والطباعة والإصدار .
- ترتب الهوامش أرقاماً لكل صفحة، ويعرّف بالمصدر والمرجع في مسرد الهوامش لدى وورد ذكره أول مرة، ويلغى ثبت (المصادر والمراجع) اكتفاءً بالتعريف في موضع الذكر الأول .
- يقدم الباحث تعهداً عند تقديم البحث يتضمن الإقرار بأنَّ البحث ليس مأخوذاً (كلاً أو بعضاً) بطريقة غير أصولية وغير موثقة من الرسائل والأطاريح الجامعية والدوريات، أو من المنشور المشاع على الشبكة الدولية للمعلومات (الانترنت).
- يحال البحث إلى خبيرين يرشحانه للنشر بعد تدقيق رصانته العلمية، وتأكيد سلامته من النقل غير المشروع، ويحال – إن اختلف الخبيران – إلى (محكم) للفحص الأخير وترجيح جهة القبول أو الرد .
- لا ترد البحوث إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر .
- يتعين على الباحث إعادة البحث مصححاً على هدي آراء الخبراء في مدة أقصاها (شهر واحد)، ويسقط حقه بأسبقية النشر بعد ذلك نتيجة للتأخير، ويكون تقديم البحث بصورته الأخيرة في نسخة ورقية وقرص مكتنز (CD) مصححاً تصحيحاً لغوياً وطباعياً متقناً، وتقع على الباحث مسؤولية ما يكون في بحثه من الأخطاء خلاف ذلك، وستخضع هيئة التحرير نسخ البحوث في كل عدد لقراءة لغوية شاملة أخرى، يقوم بها خبراء لغويون مختصون زيادة في الحيطة والحذر من الأغاليط والتصحيفات والتحريفات، مع تدقيق الملخصين المقدمين من جهة الباحث باللغة العربية أو بإحدى اللغات الأجنبية، وترجمة ما يلزم الترجمة من ذلك عند الضرورة .

((هيئة التحرير))

المحتويـــــــــات

التواصل الحجاجي في الشعر العربي قبل الإسلام
–العائلة أنموذجًا–

م.د.ألحان عبد الله محمد *

تأريخ التقديم: ٦/١١/٢٠١٣   تأريخ القبول: ٣/١٢/٢٠١٣

مدخل :

يعد التواصل(*) تقنية اساسية في فهم التفاعلات البشرية التي تفرضها العلاقات الاجتماعية الانسانية وتوجهها طبيعة الحياة المعيشية التي ينتظم بداخلها سلوك الفرد مع مجتمعه.

وسوف لن نخوض في هذه النظرية واجراءاتها التنظيرية، التي سالت حبر اقلام الكثير من المهتمين بها سواءً من النقاد الغربيين أم من نقادنا العرب، بل ستقتصر الدراسة على توضيح مقوماتها الخاصة، ومدى تأثيرها في محاورة الشاعر (المرسل) للعائلة (المرسل اليه)، ولتدعيم الدراسة، نقتصر على بعض المفاهيم التي تحتويها طبيعة الدراسة.

عرف ياكبسون النموذج التواصلي بأنه "مبني على اساس نظام قائم على المرسل للكلام، والمرسل اليه مستقبل الكلام، والرسالة ذاتها تحتاج الى مرجع، وقناة الاتصال ورامزة مشتركة كلياً أو جزئياً بين المرسل والمرسل اليه تسمح بإقامة التواصل والحفاظ عليه"(١).

* قسم اللغة العربية/ كلية التربية للبنات/جامعة الموصل .

(*) أشار أحد الباحثين أن التواصل ثلاثة أنواع هي : الوصل والايصال والاتصال. ينظر: التواصل والحجاج، عبد الرحمن طه، منتديات سور الازبكية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٤م: ٥.

(١) ينظر : قضايا الشعرية، رومان ياكبسون، ترجمة: محمد الولي ومازن حنون، دار توبقال، الدار البيضاء–المغرب، ط١، ١٩٨٨ : ٢٤.

يفترض كل تواصل باعتباره مشاركة وترابط وتبادل مرسلاً ورسالة ومستقبلاً وشفرة خاصة متعارف عليها عند المتكلم والمخاطب وسياقاً مرجعياً ومقصدياً للرسالة.

ويتبين لنا عبر هذا المفهوم ان اللسان لازمة من لوازم تحقيق التواصل بين أطراف الرسالة اللغوية، إذ يهدف كلا من المرسل/ الشاعر والمرسل اليه/ العاذلة إلى التعبير عما يدور بينهما من افكار تابعة لقصد المتكلم وارادته، فيما تتبع في الوقت نفسه لفهم السامع وإدراكه.

والواقع ان اشتغال التواصل اللغوي عبر أداته اللسانية هو تمثيل ذهني وقدرة للذات المتكلمة على التواصل عبر الأداة اللغوية، فاللغة هي "الوسيلة التي تسمح لمستعمليها الدخول في علاقات مع بعضهم بعض، وهي التي تضمن التفاهم المتبادل بينهم"(١).

ومن هذا المنطلق يخضع التواصل الشعري في نماذج العاذلة بحكم نتيجة النص وبنيته المتماسكة على مبدأ التفاعل اللفظي التي تضمن للنص الشعري بعده التواصلي وتجعل من النص الحواري الدائر بين طرفي الرسالة صوتاً تداولياً للمتكلم في سياق تبليغي وثقافي محدد، دون غياب الوظيفة التأثيرية. ومما يتقدم يظهر ان للتواصل وظائف ثلاث : التبادل، والتبليغ، والتأثير.

ويمكن القول أن تشييد الخطاب الشعري على أساس تواصلي تتحدد طبيعته ضمن معطيات يحددها السياق والمقام ويدعمها بالادلة الحجاجية، ينتج من طبيعة احترام شروط الخطاب وضوابطه ليحقق –الخطاب– "الكفاية التدليلية والتبليغية المتوخاة منه فالجانب التدليلي يتطلب من المتكلم منهجية متسقة وواضحة، أما الوجهة التبليغية فتقتضي بأن كفاية خطاب ما تستوجب استحصار قدرات المتلقي وسلامة التدليل والتبليغ"(٢).

وتجدر الاشارة إلى أن اقناع المتلقي وتبرير موقف الافصاح عن رأي لا يمكن النظر اليه إلا من حيث الغرض الذي يُلزم به الشاعر (المرسل) في التواصل مع العاذلة (متلقيه)

---

(١) اللغة والتواصل، عبد الجليل مرتاض، دار هومة، الجزائر، د.ط، ٢٠٠١ : ٨٠.

(٢) الحجاج المغالطي بين المفهوم والمقصود، حسان الباهي، مجلة المناهل، ع٦٢-٦٣، ٢٠٠١م : ١٢٠.

مستنداً في ذلك إلى مجموعة من الحجج المؤيدة بالأدلة والبراهين عبر لغة تتدرج ضمن سيرورة تواصلية تدرس مجمل العلاقات الموجودة بين المتكلم والمتلقي لدرجة نستشعر فيها ثقافة كلا الطرفين وما يترتب عليها من اهمية تظهر في استقبال النصوص وتأويلها لإعادة إنتاج الرسالة وإرسالها ليصبح الطرف المستقبل طرفاً مرسلاً[*] لتتحقق الغاية المرجوة ولينجز الهدف المنشود.

إن هذه النظرة الجديدة التي تدمج الحجاج من خلال انتقاء هذه الحجة أو تلك في صميم التواصل، إنما هو مدى امكانية احداثها التأثير المنشود في المتلقي. فحيث يكون التواصل يكون الحجاج، والعكس صحيح، ونحن هنا نؤكد المبدأ العام الذي أشار إليه طه عبد الرحمن في كتابه التواصل والحجاج بقوله "لا تواصل باللسان من غير حجاج ولا حجاج بغير تواصل باللسان"[١].

ويعرف الحجاج بأنه "كل منطوق به موجه إلى الغير لافهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها"[٢]. لذا يتمثل انجاز الحجاج في ملفوظات تستثمر فيها نفسية السامع لاحداث التأثير فيه وتوجيهه باسلوب يكفل له الإقدام أو الإحجام عن موقف أو فعل ما.

والحجاج بوصفه جنساً خاصاً من الخطاب فقد "يبنى على قضية أو فرضية خلافية، يستعين فيها الباث بالوسائل اللغوية والآليات الاقناعية المترابطة ترابطاً منطقياً، متوسلاً بها التأثير في المتلقي على صدق دعواه، وحمله على الاذعان والتسليم"[٣]. وهنا تكمن قيمة الحجاج باعتباره حواراً يدعو الى تحصيل الاقناع وتسليم العقول للغاية التي يطرحها المرسل.

(*) ينبني هذا الكلام (المرسل يكون مستقبلا، والمستقبل يكون مرسلا) في نص واحد على بعض النماذج الشعرية للعاذلة وليس كلاماً معمماً على كل النماذج التي يدرسها البحث.

(١) التواصل والحجاج، الاستاذ عبد الرحمن طه، منتديات سور الازبكية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٤م: ٥.

(٢) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن : ٢٢٦ / نقلاً عن الحجاج... التصورات والتقنيات، د. مؤيد آل صوينت، مجلة الاقلام، ع(١)، ٢٠١١م : ٧٣.

(٣) الحجاج... التصورات والتقنيات : ٧٣.

ومن هنا تكمن أهمية التعويل على الناحية الحجاجية في عملية التواصل اللساني لا لتكون بديلاً عن حصيلة المعلومات التي يقدمها المرسل لمتلقيه، بل للكشف عن "الحجج والنتائج التي تقوم بينها انماط مختلقة من العلائق والحجة تستدعي الحجة المؤيدة أو المضادة والدليل يفضي الى النتيجة، والنتيجة تفضي الى دليل آخر. وكل قول يرتبط بالقول الذي يسبقه ويوجه القول الذي يتلوه"(١)، مستعيناً بالمعطيات المقامية التي يوفرها النص ومراعياً كل مستلزماته التخاطبية من قيود تواصلية وحدود تعاملية عند التوجه نحو المرسل اليه لتتولد الوظيفة الافهامية التي تسعى إلى تكييف خطاب المرسل على قدر عقل متلقيه ليحصل التفاعل وكسب استمالة المرسل اليه ورضاه(٢).

وبعد هذا التقديم فقد تجلو للعيان في الجانب التطبيقي كفاءة الشاعر/ المرسل الابلاغية من جهة، ومكانته المقامية من جهة ثانية في تأسيس المنجز الشعري العذلي على ميثاق التواصل الحجاجي عن طريق لغة تساعد على فهم الخطاب ونجاحه ومدى مناسبته للسامع واقناعه بواسطة الوقائع المعبر عنها بالاقوال لتضييق شقة النزاع بين المتحاورين أولاً واحداث التأثير والاقناع بنسب مقصد الحجاج ومقتضيات المقام.

اشكالية تطبيق التواصل الحجاجي على نصوص العاذلة :

ويكمن الإجراء التطبيقي في محاورة الشاعر لعاذلته من خلال اعتماد الجانب الحجاجي على تحديد نوعية السلوك الملام عليه. فالحديث عن ذاته والتعبير عن مواقفه بوضوح تمثل وقفات يعمد اليها الشاعر ليقدم أدلته وبراهينه ووسيلة ليشد بها متلقيه عندما يتبادل كل من المرسل (الشاعر) والمتلقي (العاذلة) أطراف الكلام وفق اسلوب شعري صادق في معاناته، ساعٍ الى تبليغ خطاب، رامٍ الى التواصل بهدف الحث والتحريض والإقناع وتغيير افكار العاذلة ومعتقداتها وسلوكها. ويصنف هذا السلوك في أربعة ضوابط :

---

(١) الخطاب والحجاج، د. أبو بكر العزاوي، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، بيروت–لبنان، ط١، ٢٠١١م : ١٩.

(٢) ينظر : دينامية النص، تنظير وايجاز، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، بيروت–لبنان، ط١، ١٩٨٧م : ٥٠.

١. السياق التواصلي للحجاج وفق السلوك الإنساني.
٢. السياق التواصلي للحجاج وفق السلوك المادي.
٣. السياق التواصل للحجاج وفق السلوك الإجتماعي.
٤. السياق التواصلي للحجاج وفق السلوك الأخلاقي.

١. السياق التواصلي للحجاج وفق السلوك الانساني :

إن ما يميز شعر العذل قبل الاسلام النظرة السلوكية لحياة الانسان، ففيه تتولد الحماسة كما تثور في جوانبه لفحات من العاطفة المتمردة، وتتدفق في قصائده روح الإنفعال والحماسة نتيجة للدور الانساني الذي يتصف به الشاعر.

وقد سعى الشاعر ومن منطلقه الانساني إلى المخاطرة بالنفس والتضحية والشهامة والدفاع عن الضعيف وحماية الجار والذود عن حمى الاعراض، لتتجلى ومن جانب آخر الطرف المناقض (العاذلة) فتعذله على تعريض نفسه للمخاطر وترغبه في البقاء لجانبها حرصاً على حياته. وفي دراستنا لهذا الجانب سنقف عند صاحب الصوت الانساني المتسم بشخصية فذة وعقل ناضج حكيم، فلولا حذقه الضابط لأمره ونضج تفكيره لما استطاع أن يتصدى للتيار المعاكس الذي يقف في وجهه.

ففي شعر عروة بن الورد نجد وقوف عاذلته عند حدود تخويفه من الموت وتعريضه للهلاك مما أدى الى مواجهتها بعنف، يقول(١) :

ألا أقصر من الغزو واشتكى ... لها القولَ طرفٌ أحورُ العين دامعُ
سأغنيك عن رجعِ الملام بمُزمعٍ ... من الأمر لا يعشو عليه المطاوعُ
لبوسٌ ثياب الموت حتى إلى الذي ... يوائم إما سائمٌ، وإما مصارعُ
إذا أرهنته المينُ شَدة ماجدٍ ... فورعها القومُ الآلى ثم ماصعوا
ويدعونني كهلاً وقد عشت حقبةً ... وهن عن الأزواج نحوي نوازع

(١) ديوانا عروة بن الورد والسموئل، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٠م : ٤٨.

كــأني حصــان مــال عنــه جِلالــهُ أغــرٌّ كــريم حولــه العــوذُ رائــعُ

فما شاب رأسي من سنين تتابعت طــوالٍ ولكــن شــيبته الوقــائعُ

إن السياق فخري وفيه ينفي عروة عن نفسه ما تدعوه اليه عاذلته، وعبر السياق التواصلي وضمن السنن المتعارف عليها من قبل طرفي الرسالة اللغوية، يحتج المرسل/ الشاعر بأدلة تعزز ضرورة الاقدام وركوب المخاطرة، وهو يستعيد ما قاله ويكرر ما استدل به لبلوغ الغايات والمقاصد. فالشاعر يخلع عن نفسه رداء القعود عن الحروب والغزوات وعدم مبالاته بجمال المرأة وما يلج في نفسه من مشاعر تجاهها عبر رصده لملامحها، فإذا نظرنا في خطابها وخوفها على الشاعر رأيناها باكية تتوسل إليه وتدعوه إلى الرجوع عن ركوب المخاطرة، ولكن رفضه لما تحضه عليه تمنحنا مشروعية وجوده الانساني.

وعند تأملنا في حوار الشاعر وهو يرسل رسالته، نلحظ أن انتاج الرسالة لا يأتي عن فراغ، فهناك الخلفيات الفكرية التي تقف وراء تحرك وتوجه وانتاج الرسالة. فصوت العاذلة كان أقرب الى التوسل والتودد ولكن الشاعر رفض ذلك التوسل حرصاً على ما يصبو اليه من غاية وهو يدرك أن توسل العاذلة يشعل حبات القلوب.

والشاعر يستدل في تقديم فكرته من خلال تأسيسه للواقع، ويؤكد قدرة الذات على النهوض لعظائم الامور والقيام بما عز على العاذلة مضيفاً أنه في نهوضه بذلك إنما أثبت ما يريد تثبيته من قيم وفضائل.

فالمثير في الابيات أعلاه أنها مقدمات لاستنتاج تحتاج امعان النظر من قبل المتلقي لاكتمال بنائها وللوصول إلى النتيجة المرجوة من دعوة العاذلة المستقبلة لخطاب الشاعر بأسلوبها القوي وإعلان حبها وخوفها عليه ومنعه من دخول الحرب إلى ما يقدمه الشاعر/ المرسل من قرائن دالة على التعليل الصحيح في الاستنتاج، ذلك أن العاذلة لكثرة لومها وعتابها سيغنيها المرسل وعبر رسالته الانفعالية بجملة أمور هي أن دخوله المعركة وعدم مبالاته بل وعدم تأثره بتوسلات عاذلته فضلاً عن عزوف النساء عنه فلم يسلم من آثار كبر سنه عندما شاب الرأس واصبح كهلاً، وهي كما نرى حقائق تثبت جدوى حجته وتخدم فكرته وتنقض بالمقابل رأي مستقبل رسالته (العاذلة)، وهي بذلك تقود المتلقي إلى استنتاج

حقيقة طالما رددها الكثيرون هي أن شيب الرأس ليس من فعل تقادم الزمن عليه، وانما لكثرة ملازمته للحروب.

ويبرز السلوك الانساني عند الشاعر ابو النشناش النهشلي في الإصرار على اظهار الشجاعة، حينما يرى أن الصعلوك البطل الساعي إلى الغزو والمخاطرة من يرمي بنفسه ليلاً لاكتساب المال واستعادة حقه المسلوب من قبليته، يقول(١) :

وسائلة أينَ الرحيل وسائل　　　ومَن يسألُ الصعلوك أين مذاهبهُ
وداويةٍ بهماء يُخشى بها الردى　　　سَرَت بأبي النشناشِ فيها ركائبُه
لِيُدركَ ثأراً أو ليُدرِكَ مَغنَماً　　　جزيلاً وهذا الدهرُ جَمٌّ عجائبُه
إذا المرء لم يَسرَح سواماً ولم يُرح　　　سَوَاماً ولم تعطفْ عليه أقاربُه
فللموت خيرٌ للفتى من قُعودِهِ　　　فقيراً ومن مَوْلى تدبُّ عقاربُهْ
ولم أرى مثل الهمِّ ضاجَعَهُ الفتى　　　ولا كسوادِ الليل أخفقَ طالبُه
فمُتْ مُعدِماً أو عش كريماً فإنني　　　أرى الموت لا ينجو من الموتِ
ولو كان شيءٌ ناجياً من منيّةٍ　　　لكان أثيرٌ يومَ جاءت كتائبُه

إن حوار الذات المرسلة حوار انفعالي في مكوناته، الغرض منه تحقيق الفاعلية التأثيرية في المتلقي (السائلة). ونلمس الاقناعية التأثيرية المباشرة في مستقبل الرسالة من خلال تبيان حقيقة الثائر المتمرد الذي لا يخاف ركوب المخاطر ولا يهاب الموت. والتعليل والتبرير الذي كشف عنهما النص ما هو في الحقيقة الا شهادة تفصح عن المرسل (الصعلوك) بوصفه ذاتاً صاحب حق، وأنه استطاب الحرب والصراع مع الآخر ووصل به الأمر أن يتغنى بأفعاله ويهزأ من الصعلوك الفقير الذي لا يقوى على خوض معامع النزال. فالنص انتهج توظيف الأدلة الحجاجية كوسيلة اقناعية لتحقيق ما تصبو اليه النفس من آمال ومكانة مقدسة في نفس المتلقي، والحوار الحجاجي بوصفه وسيلة تواصل بين طرفي

---

(١) الأصمعيات، أبي سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦٤م: ١١٨-١١٩.

الرسالة الكلامية والمتدثر أو المشقّع بالحماسة والاشادة بإحقاق الحقوق له سلطة وتأثير ومدخل محمود العواقب يحقق التواصل من ورائه اهدافه المباشرة، كما أنه وسيلة اساسية وطريق موصل للاقناع وإذعان المتلقي بما يحمله المرسل من افكار ورؤى من وراء ملفوظاته، ومن أمثلة ذلك التغني والاستهانة بالموت أفضل من القعود لادراك الثأر أو لكسب مغنم، وقديماً أشار أحد الباحثين إلى "أن استعداد الشاعر الصعلوك لملاقاة الموت قد يتجاوز أزمته النفسية الناجمة عن مقابلة بين القيم والمثل وبين الواقع"[1] الأليم الذي يعيشه الشاعر مع رفاقه الصعاليك. كما أن الكثير من ملفوظات النص لها ارتباط بالواقع الاجتماعي والسياسي، وهذا ما تتطلبه العملية التوصيلية من اتفاق بين طرفي الرسالة (المرسل والمستقبل) على محتوى السياق الإخباري من السنن التي يحيل اليها الواقع الخارجي، حيث اعتمدت الثورة والإغارة كمنطلق لها، تأخذ منه القوة والإرادة لتبرر منه أعمالها، لأن التمرد يضفي على النفس أو الذات المرسلة طابعاً سلطوياً ولتكون دعماً ناجحاً للوظيفة الاقناعية والتأثيرية.

ويشيد السليك بن السلكة في نعمة الفخر والاعتداد بالذات وما أوتيت من قوة فيطلب من عاذلته ترك عتبها ومقاطعته لتتجلى المعاني الانسانية عند رده عليها، يقول[2] :

الا عتبت عليّ فصارمتني ... واعجبها ذوو اللمم الطوالِ
فإني يا بنة الأقوام آربي ... على فعل الوضي من الرجالِ
فلا تصلي بصعلوك نؤوم ... إذا أمسى يعدّ من العيالِ
إذا أضحى تفقد منكبيه ... وأبصر لحمه حذر الهزالِ
ولكن كل صعلوك ضروبٌ ... بنصل السيف هامات الرجالِ
أشاب الرأس إني كل يومٍ ... أرى لي خالةً وسط الرجالِ
يشق عليّ أن يلقين ضيماً ... ويعجر عن تخلصهنّ حالي

(١) مدخل الى الأدب الجاهلي، إحسان سركيس، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م : ٢٠٩.
(٢) ديوان السليك بن السلكة، شرحه: سعدي الضناوي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤م : ٨٦.

والواقع أن جل الرسائل اللسانية التي يتواصل من خلالها الشاعر/ المرسل الى متلقيه/ العاذلة، هي رسائل تنزع بوضوح إلى اتخاذ الحالة الخاصة لتثبت الآراء وتدعم الافكار. لذا تبدو تجربة الشاعر الذاتية منطلقاً هاماً يسهم في تدعيم الطاقة الاقناعية لحججه المقدمة للطرف المستقبل للرسالة (العاذلة) والمناقض لها.

فالمرسل حاول من خلال هذه المقطوعة إظهار الاستدلال المنطقي الذي تعود اليه الحجة بالاداة (لكن) من خلال ناحيتين متناقضتين :

أولاهما : يعيب على الصعلوك الخامل ويحط من شأنه الذي لا يعتمد عليه في الخطوب ولا الملمات لأنه ضعيف ما يهمه فقط نفسه فاذا أمسى نام مع الصغار وإذا أصبح اهتم بمظهره.

وثانيهما : فذاك الصعلوك الأبي الذي يتخلق بالقيم النبيلة خدمة ليس لذاته وإنما للصالح العام. فمن شأن الاداة (لكن) التي وظفت توظيفاً حجاجياً أنها أقوى من الحجج التي ترد قبلها حيث وجهت القول أو الخطاب بمجمله[١]، لتخدم النتيجة وتحدث التأثير والاقناع في المتلقي.

إن صوت العاذلة في النص أعلاه هو الصوت المناقض الذي يهب لمرسل الرسالة (الشاعر) شيئاً من العلو والعظمة ليتحدث عن ذاته، وليرسم صورة لنفسه يتحدى من خلالها العاذلة بأسلوب الأمر (أربي على فعل العرضي من الرجال) والنهي (فلا تصلي بصعلوك...) وسلطة الكلام المجادل الذي يطمح إلى أن يكونه أو يكون حاضراً في عمق نصه، فقد أغنى قصائده بنفسيته الطموحة من جهة وبصفاته المتفردة من جهة أخرى، فقد خص نفسه بمساحة كما اشتغل على موضوع متناقض، فكان يقارع ويعاتب عاذلته، من خلال رسالته التواصلية ووظيفته الانفعالية وتأثيرها في المتلقي. وهنا تبرز السنن المتعارف عليها والتي جاءت مطابقة للواقع وداخلة ضمن الاعراف والتقاليد الثقافية في ذلك العصر.

---

(١) ينظر : الخطاب والحجاج : ٢٣-٢٤.

ويصر عنترة بن شداد على ممارسة الغزو والدخول في الحروب تلبية للواجب الانساني تجاه قبيلته، وهو في مواجهة تجاه عاذلته التي تثنيه عن الغزو لعدم ادراكها حقائق الامور التي ينطلق منها، يقول(١) :

تُعنفنــــي زَبيبـــةُ فــــي المـــلام   علــى الأقــدام فــي يــومِ الزّحــام

تخــافُ علــيّ ان ألقــى حمــامي   بطعــنِ الــرمح أو ضــرب الحُســامِ

مقـــالٌ لـــيس يقبُلــه كِـــرامٌ   ولا يرضـــى بـــه غيـــرُ اللئـــامِ

يخـوضُ الشـيخُ فـي بحـرِ المنايـا   ويرجـــعُ ســالماً والبحــرُ طــامي

ويـأتي المـوتُ طِفـلاً فـي مهـودٍ   ويَلقـــى حَتفَـــهُ قبـــلَ الفطـــامِ

فـــلا تـــرضَ بمنقصـــةٍ وذُلٍ   وتقنـــعْ بالقليـــل مـــن الحُطـــامِ

فعيشُــك تحــت ظــل العــزّ يومــاً   ولا تحـــت المذلـــة ألـــفَ عـــامِ

ولنا أن نتوقف عند الابيات التي يتخذها الشاعر/ المرسل هدفاً لإسكات العاذلة وليبين طاقته الايحائية والتأثيرية في نفس المتلقي. إذ بدا الشاعر يفصح عن الفكرة التي تدعوه إليها العاذلة والمتمثلة بالقعود عن خوض غمار الحروب مخافة أن يلقى حتفه ولا رجعة له. فالسياق لوم وعتاب ورد مقنع وتبرير لموقف إذ يلوم الشاعر عاذلته محاولاً اسكاتها.

وما يهمنا في هذه الابيات هو حسن انتقاء الالفاظ واحلالها في موضعها المناسب من النص. فقد أقر الشاعر برسالته الحجاجية وبأدلته المقنعة ديمومة الحياة للشيخ وإن خاض غمار الحرب، في مقابل عبثية الموت للطفل في مهده بفعل خالف الصورة المتوقعة للطفل الذي يرنو الى السكينة والأمن. إذ يمكن اعتبار هذين البيتين في نظرنا ذات طاقة حجاجية عالية أحسن الشاعر انتقاؤهما حين وظفهما في مكانهما الملائم في القصيدة ككل. إذ تأتي الصورة الايحائية للحياة والموت مؤثرة في نفس المتلقي بعدما مثلت الوظيفة الشعرية للرسالة والحجة المركزية في التواصل بين طرفي الرسالة، كما يدل تركيب الجمل

(١) ديوان عنترة بن شداد، شرحه: حمدي طماس، دار المعرفة للطباعة والشنر، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٣م : ١٦٧.

على أنه تجلٍ للواقع، ذلك الواقع الذي يشغل بال الشاعر، لما لهذا التركيب من اهتمام في العملية التواصلية، فالشاعر أراد من خلال تراكيبه اللغوية ايصال الافكار والمعاني التي تندرج ضمن ما يطلق عليه بالبناء الدلالي للنص وما تحيل اليه السنن من مرجعيات متعارف عليها من قبل الطرف المستقبل للرسالة (العاذلة)، فهذا التركيب يبين طريقة التواصل التعبيرية التي استعان بها الشاعر لايصال مضامينه اللغوية، لأن الاقرار بحجة يقتضي الإقرار بحجة ثانية والوقف على احداها يستتبع ضرورة الوقوف على الاخرى ولهذا كانت دلالة (الحياة) في البيت الرابع و(دلالة الموت) في البيت الخامس تعكس بوضوح الانسجام القائم بين اللغة والمعنى، فالشاعر في توظيفه اللغة يسعى الى تحقيق تواصل لساني مع متلقيه، أي "يريد أن يفهم، ولكنه يريد أن يفهم بطريقة ما إنه يهدف الى إثارة شكل خاص من الفهم عند المتلقي، يختلف عن الفهم التحليلي الواضح الذي تثيره الرسالة العادية"(١).

وهنا تبرز اللغة الواصفة (الشارحة) في سياق استمالة العاذلة وزرع الثقة في قلبها لتقبل على سلامة رأي المرسل وصحة تفكيره وهذا ما بدا واضحاً في البيت الأخير الذي كان بمثابة أمرين احداهما يصبح ضرورياً حينما ترضى بالعيش يوماً بغز وفخر، وثانيهما بات معيباً عليها وعاراً حينما يستبد الجهل بنفسها فتغدو ذليلة طيلة حياتها.

٢. السياق التواصلي للحجاج وفق السلوك المادي :

كثيرة هي النصوص الجاهلية التي تصور ما كان يدور بين المرأة والرجل ضمن سياسة المال، ورعاية الجار، وحماية الحقوق والعطف على الفقير.

لذا يعد الكرم وانفاق المال اتجاهاً مالياً مدعاة للاعتزاز بالذات، بل فضيلة انسانية سائدة تدعو الى البذل والعطاء وتنفر من البخل والإدخار، فهي حقيقة تؤكد الفعل الايجابي للشاعر في إقباله على الحياة وجعل منها مبرراً لانتهاز فرصة حياته قبل مماته، لينفق المال صيانة لعرضه وكسباً لطيب الثناء وحسن الاحدوثة، ويفاخر بأعماله الأقران

---

(١) بنية اللغة الشعرية، جان كوهن، ترجمة: محمد الولي ومحمد العمري، المعرفة الادبية، دار توبقال للنشر، ط١، ١٩٨٦م : ٩٥.

والأنداد[١]. إلا أن ذلك لم يمنع من وجود من يعارض الشاعر بل يصل ذلك حد لومه وتعنيفه. وقد كانت العاذلة تنطلق في عذلها من جوانب متعددة، إذ قد يكون الحرص على حياة المعذول والخوف من هلاك ماله.

فكانت لمحاولات المرأة الدور الكبير في التأثير بالرجل ومحاولة تغيير سلوكه، إلا أنها لم تجد نفعاً ويظهر ذلك بوضوح عند تقديم الشاعر لحججه وبراهينه التي تدعم موقفه امام العاذلة.

فقد يتخذ لبيد بن ربيعة العامري من تواصله الحجاجي إزاء عاذلته وسيلة لابراز مفاخره بعطائه وجوده والحرص على كسب السمعة الحسنة التي تحفظ قدره، يقول[٢] :

أعاذلُ قومي فاعذلي الآن أو ذري   فلست وإن أقصرتِ عني بمقصّر

أعاذلُ لا والله ما من سلامة   ولو اشفقت نفس الشحيح المثمِّر

أفي العرضَ بالمال التلاد واشتري   به الحمد إن الطالب الحمد مشتري

وكم مشترٍ من ماله حسنَ صيته   لأيامه في كل مَبْدئ ومحضرِ

أُباهي به الأكفاء في كل موطنٍ   وأقضِي فُروضَ الصالحين وأقتري

إن الشاعر/ المرسل بما يمتلكه من سلطة قوية مستمدة من مقامه في سلم العائلة بحث عن أفضل طريقة لاقناع عاذلته/ المرسل اليها، وذلك من خلال توظيف لغة مقنعة ذات آليات مناسبة بلغة خطابية وتواصلية واجتماعية، لان اللغة في حقيقة الامر "الاداة الأهم فلا يقتصر دورها على وظيفة نقل الخبر ووصف الواقع بل ينجز الانسان بها اعمالاً لا يستطيع انجازها من دونها"[٣].

---

(١) ينظر : العاذلة في الشعر الجاهلي، ابراهيم موسى السنجلاوي، المجلة العربية للعلوم الانسانية، جامعة الكويت، ع(٧)، مج(٢٨)، ١٩٨٧ : ٤٠.

(٢) ديوان لبيد بن ربيعة العامري، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م: ٦٧.

(٣) استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديدة المتحدة، طرابلس–ليبيا، ط١، ٢٠٠٤م : ٢٤.

حاول المرسل في رسالته التعبيرية الانفعالية ربط نتيجة ما يؤمن به من انفاق المال بحسن الذكر بعد أن توافيه المنية، فقد أنجز باللغة أفعالاً تمثلت في (أفي، اشتري، اقضي، أقتري) غاية منه لاقناع متلقيه في انجاز افعال لعالمه المستقبلي.

فالشاعر ذو شخصية حكيمة داعٍ إلى بلوغ الكمال المطلق في الأخلاق والأفعال ما عرف عنه من فضائل وخصال وعطايا يبغي من ورائها شراء الحمد وصون العرض وحسن الذكر.

فشعره رسالة من القيم والمبادئ والامجاد وصل به الأمر إلى أن يرى نفسه على حق وغيره على باطل، وهو ينصب نفسه قاضياً ويضع عاذلته في قفص الاتهام. لذلك احتج في كلامه وقدم الادلة والبراهين ليتخذ من هذا القول ذريعة يحتمي وراءها ووسيلة ينفذ من خلالها إلى مآربه في أنه كيف يقبل على نفسه التنعم بالثروة ويعيش غيره على هامش الحياة.

من هنا يتضح لنا أن لغة الحوار في البيتين الأول والثاني، حققت التواصل ازاء طرفي الرسالة اللغوية. فالحجج المقدمة من قبل مرسل الرسالة سمحت للمتلقي أن يتجاوب معها لأنها تآلفت ورتبت تبعاً لنظام لغوي مشترك بين الطرفين. لذا فلا جدال إذا قلنا أن النص يطرح اشكالية قيمة المال في حياة الانسان فهي الغاية التي يحاجج بها عاذلته لأن المال يهب الحياة له ولفقرائه المستضعفين وبدونه يتبدد طعم الحياة وتتلاشى فرحته حتى وإن كان على حساب نأي العاذلة عنه. وهكذا حققت اللغة بنسق قواعدها وبلغتها الواضحة التواصل اللساني بين الطرفين لأن الوضع اللغوي اي السنن المتفق عليه من قبل الطرفين له الدور الكبير في فهم الرسالة وهذا ما نستخلصه من اعتبار السنن هي "نسق القواعد المشتركة بين المرسل والمتلقي والذي بدونه لا يمكن للرسالة أن تفهم أو تؤول"[(١)]، فكانت الرسالة دافعاً قوياً ومؤثراً لاقناع عاذلته والاعتقاد به وتنفيذه.

---

(١) اللغة والخطاب، عمر أوكان، افريقيا الشرق، المغرب، د.ط، ٢٠٠١م : ٣٨.

ويزداد انفعال المخبل السعدي في محاجته للعاذلة حينما يستعرض رؤيته العميقة واحساسه القوي بالزمن والكشف عن صورة الموت لعله يقنع عاذلته بسلوكه الصحيح تجاه انفاق المال، يقول(١) :

وتقولُ عاذلتي وليسَ لها بعدٍ ولا ما بعدهُ عِلم

إن الثراء هو الخلود وإ ن المرء يكربُ يومه العُدمُ

إني وجدّك ما تُخلّدني مائةٌ يطيرُ عفاؤها أدمُ

ولئن بنيت لي المشقرُ في هضبٍ تقصُر دُونه العُصمُ

لتُنقبِنْ عنّي المنيةُ إ نّ الله ليس كحكمه حكمُ

إني وَجَدتُ الأمر أرشَدُهُ تَقوى الإلهِ وشرُّه الإثمُ

في الابيات أعلاه رسالة موجهة من المرسل/ الشاعر إلى المرسل اليه/ العاذلة، وهو إذ افتتح قصيدته بـ (تقول) ليفصح عن الفكرة التي تدعوه اليها وتلزمه بها والمتمثلة بالقعود عن انفاق المال لأن الإسراف والتبذير في رأيها كرب وابتلاء، أما ثراء المال فيبقى مخلداً للأبد. إلا أنه في الابيات اللاحقة دافع عن قضية هامة ووجهها إلى وجهة ارتآها حقاً خالصاً تفرض عليه العطف بالآخرين وحسن التعامل معهم لاسيما في الجانب المالي، لأن المرء مهما طال به العمر لا محالة سيلقى حتفه وإن اعتلى أعلى الهضاب. وأجد من الضرورة الإشارة أن الحوار في هذا النص يعد سبيلاً ناجعاً ينتهجه "مرسل الخطاب لدراسة حجج ومواقف مخاطبيه بطريقة تمنح حجاجه النفاذ والمصداقية، وهما أمران لا يتمان إلا عن طريق الحوار المؤسس على الاحترام والحقيقة، والبعيد عن القسر والاحتيال"(٢). وفي ذلك السياق الحواري وازاء موقفه والدفاع عن فكرته وتحميل الطرف الثاني (العاذلة) مسؤولية ما تقول استند إلى أدلة يدلل بها على حججه سطرها بدقة ووجه

(١) ديوان المفضليات، ابو العباس المفضل بن محمد الضبي، مطبعة الآباء، بيروت، ١٩٢٠م: ٢٢٣–٢٢٤.

(٢) الحجاج في البلاغة المعاصرة–بحث في بلاغة النقد المعاصر، د. محمد سالم محمد الأمين الطلبة، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت–لبنان، ط١، ٢٠٠٨م : ١١٩.

متلقيه إلى اكتشاف الاساس الرابط بينها وعلاقاتها بالنتائج التي اراد أن يقنع متلقيه بصحتها. فالشاعر من خلال معايشته للحياة والواقع يكتشف أن ثمة أمورٍ ينبغي أن تدرك من قبل متلقيه، كما ويجب أن يتخذ اشكالاً مغايرة لما هي عليه. فهو يحتج أمام متلقيه (العاذلة) بضعف الانسان بل بعجزه أمام مواجهة الموت حتى ولو ارتقى أعالي الجبال فالموت ملاقيه. فهو الدليل الاقوى الذي عكف الشاعر من تغيير وجهة نظر عاذلته ازاء ما تدعوه إليه. فرسالته تعبيرية وانفعالية مشروطة بالقصدية لانها كشفت عن احساس مؤلم بضعف الإنسان وعجزه امام أقدار لا حيلة له ولا قدرة على تغييرها. فالشاعر يحتج لضعفه ويبرر بحقيقة الموت وقتامة المصير.

فضلا عن ذلك إن افتتاح البيت الثالث بـ (اني وجدك) يتمثل حضور المرسل اليه (الشاعر) وموقفه بالرد على رسالة المرسل (العاذلة) فبعد ممارسته لتفكيك خطاب العاذلة وتأويل مقاصدها تبادل الدور فأصبح مرسلاً ليضمن للنص الشعري بعده التواصلي وهذا ما استلخصناه من الاداة التأكيدية (اني وجدكِ) ذات الطاقة الحجاجية لما لها من اثارة واضحة أسبغت على فحوى خطابه صدق النوايا وثوب الحقيقة، مستنداً بذلك إلى ثمة معارف تعبر عن صدق قوله والجرأة في إظهار الرأي وهو أمر يسهل تبريره باظهار الحق ونفي أن يكون مجرد فرضية أو محض احتمال. فبهذه الرسالة احتج لآرائه وبرر موقفه استناداً إلى قيمة الحق وهي قيمة فاعلة دون شك مؤثرة في المتلقي يكفي حضورها في خطاب حجاجي معين لتوجه متلقيه الى وجهة محددة سطر الباث طريقها بدقة وحمل مخاطبه على السير فيها(١). فالحجة تؤكد صدق ما يقوله وصحة ما يخبر متلقيه بالإقرار في حسن الأمور التي ترشده إلى الخير وتصده عن الشر والإثم.

---

(١) ينظر : الحجاج في الشعر العربي بنيته واساليبه، د. سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، اربد– الاردن، ط٢، ٢٠١١م : ٢٧٤.

ويجعل حاتم الطائي في تواصله الحجاجي عند مواجهته للعاذلة من تخليد الذكر وكسب الثناء وسيلتان يكتسبهما من انفاقه للمال لتكون دليلاً مبرراً بما سيقتضيه من رصيد رابح على مر السنين في زمن سيحيا ذكراه بعد تلاشي صورة فنائه، يقول[1] :

أماويّ قد طال التجنب والهجرُ وقد عذرتني من طِلابكم العذرُ
أماويّ إنّ المال غادٍ ورائحٌ ويبقى من المالِ الأحاديث والذكرُ
أماويّ إني لا أقولُ لسائلٍ إذا جاء يوماً حل في مالنا نزْرُ
أماويّ إما مانع فمُبيّن وإما عطاءٌ لا يُنهِهنه الزجرُ
أماويّ ما يغني الثراءُ عن الفتى إذا حشرجت نفسٌ وضاقَ بها
إذا أنا دلاني الذين احبهم لملحودةٍ زلجٌ جوانبها غُبرُ
وراحوا عِجالاً ينفضون أكفهم يقولون قد دمى أناملنا الحفرُ
أماويّ إن يُصبح صداي بقفرةٍ من الارض، لا ماءٌ هناك ولا خمرُ
أماويّ إني رُبّ واحد أمّه أجرتُ فلا قتلٌ عليه ولا أسرُ

حاول المرسل من خلال رسالته التخاطبية المتضمنة أفكاراً ذات مقاصد تبليغ المرسل اليه (العاذلة) واعطائها صورة جيدة وواقع ينشد به الحياة لفقرائه المعوزين، وعندها تعمل لغة الحوار على تحقيق التواصل اللساني وتسعى جاهدة من خلال المعطيات السياقية والعلاقات التخاطبية إلى اثبات البراهين والادلة ووسائل لسانية اخرى، كتكرار (أماويّ) لتزداد الطاقة الحجاجية وتتأكد قدرة التكرار على الاقناع والتأثير، وبالتالي يضمن المرسل لنفسه صورة جيدة ودافعاً قوياً في اثبات وتأكيد أحقية المستضعفين في ماله مستدلاً بذلك ان ما قيمة المال وما حقيقة الغنى اذا التحق الانسان بالرفيق الاعلى واصبح جثة هامدة ضاق بها القبر لا حول لها ولا قوة ؟

---

(١) ديوان حاتم الطائي، شرحه وقدم له: أحمد رشاد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٢م : ٢٣-٢٤.

والشاعر يبرز معنى طالما ردده الشعراء وموقفاً طالما أجادوا في تصويره ونقصد به موت الانسان واستشعار الألم عند السير به ووضعه في القبر ورد التراب عليه. وعلى هذا النحو يكون الاعتراف بحقيقة الموت ولا يمكن إنكاره.

والواقع أن ما جاء في حقيقة تحريك نفوس الاغنياء وسعيهم لمساندة الضعفاء وميسوري الحال قبل ارتحالهم إلى الدار الآخرة، هي الدليل الأقوى لتمثيل حجة تستدعي الواقع الانساني في المعاش في اثبات صوب رأيه ورشاد عقله، كما وتستند اليه في تدعيم القول واقناع الآخر وتفنيد آرائه، "لان ما كان مبنياً على الواقع أقوى من حيث الطاقة الحجاجية مما كان مبنياً على مجرد الافتراض"(١).

ويمكن ان يتضح لنا ذلك من خلال الآليات اللغوية التي اتخذها المرسل لتجسد كفاءته التداولية ويتمثل ذلك في الكلام الاخباري عن الصراع النفسي الذي يعيشه الشاعر لما يناقض حاله ويعارضها مع افكار عاذلته، وقد تجسد نمط التواصل في بنية الحوار المعارض من خلال :

١.التكرار اللفظي لجملة (أماويّ) يثير اشكالاً ويوجه العاذلة إلى وجهة محددة يقصد إليها الشاعر قصداً ويظهر ما خفي ويجلي ما لم يتوقع، نظراً لما للتكرار من صدى شديد الوقع في الاسماع وأثر قوي في القلب، فالتكرار بلا شك يعد رافداً هاماً من روافد الحجاج. إذ لاحظنا مع كل تكرار في جملة (أماويّ) تنويع في الحجج والبراهين المقدمة، وهذا التكرار صحيح انه ذات صياغة متنوعة إلا أنه في حقيقة الامر هو استعادة لنفس الفكرة، وتكرار ما استدل به وهذا ما يشكل دليلاً أقوى على التصرف الايجابي الذي يليق بحياته وسيكون له أثر يخلد بعد مماته ويظل يردد على مسامع الناس، وما نروم تأكيده أن هذا النوع من التكرار هام وضروري في الخطاب الحجاجي لأن المتكلم حين يستعيد ما قاله ويضيف اليه إنما ينطلق من أمر ويبني عليه فما كان مقدمة يصبح حجة وما كان حجة يصبح مقدمة لحجة أخرى(٢). وهكذا اتخذ الشاعر من تكراره موقفاً تحددت

---

(١) الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه : ٣٤٩.

(٢) ينظر : الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه : ١٧٢.

معه الخلفية الفكرية والاتجاه العقائدي في اصلاح الواقع المعاشي، أما النتيجة الحقيقية فهي السمعة الطيبة وتخليد الذكر إلى اليوم الآخر.

٢.ان طاقة الاقناع في حوار المرسل/ الشاعر متأتية من جعله السمات المميزة لشخصه محل نداء العاذلة/ المرسل اليها، أي لم يجعلها اشكالاً بل جعل تكراره للنداء هو الوجهة المحددة لتقديم أدلته واقناع العاذلة بها، مقترحاً بذلك وجهين للاجابة (نفي واثبات) يوجب خلالهما الشاعر العاذلة بإدراك حججه فلا تخرج عن حالتين : حال الموقنة بتلك الفعال الايجابية المتجاهلة لها فيكون انكارها لها جهلاً لما تدرك، أو حال الجاهلة بتلك الفعال فيكون استنتاجها خاطئ لانها لا تتفطن للامور السليمة ودقائقها، ولا تقدر ظواهر الفعل الايجابي.

٣. السياق التواصلي للحجاج وفق السلوك الاجتماعي :

من خلال هذا الجانب يرسم الشاعر صورة لشخصيته ويبين هويته، محقراً الآخرين، ومجاهراً بفلسفته التي يحكمها واقعه النفسي، وعندئذ ارتفعت لديه لهجة التحدي ازاء عاذلته عندما ألح على تصوير جانب من خلقه الاجتماعي، الامر الذي تقبله القبيلة بالطبع وتشجع عليه كجزء من عقدها واليه أضاف جديداً حين جعله صادراً عن قناعته الخاصة به.

لقد تميز شخصه بمميزات الخلق الرفيع والمروءة ليظل هذا السلوك بمثابة الخيط الرفيع الذي يضمن له البقاء في حدود الصيغة الاجتماعية.

وسرعان ما يتحول لديه موقف الشيب الى نمط من التحدي تحدي الشاعر لموقف العاذلة من خلال ثقته بنفسه وبصدقه وقناعته بمسلكه، فلم يأبى نأي العاذلة عنه أو عتابها له لانه يبدو قادراً اجتماعياً ان يصوغ علاقات متجددة مع الآخرين يعترفون بقوة شخصيته وصدق فلسفته.

ويتخذ نص عبيد بن الابرص نمط التهديد للعاذلة، مطالباً إياها بالتوقف عن تلك التصرفات وبالرفق في عتابها وعدم الاستخفاف به، يقول(١) :

الا عتبت علـيّ اليومَ عِرسِي … وقد هبّت بليلٍ تشتكيني
فقالت لي كبرتُ فقلتُ حقاً … لقد أخلفتُ حيناً بعدَ حينِ
تُريني آيةَ الإعراض منها … وفظّت في المقالةِ بعد لينِ
ومطّت حاجبيها أن رأتني … كَبِرتُ وأن قد ابيضّت قرُوني
فقلتُ لها رويدكِ بعضَ عَتبي … فإني لا أرى أن تزدَهيني
وعِيشي بالذي يُغنيكِ حتى … إذا ما شِئتِ تنأى فبيني

إن مظاهر التواصل اللساني بين طرفي الرسالة اللغوية قد جسدت الاستراتيجية الاقناعية من قبل مرسل الرسالة (الشاعر) حتى يتسنى للطرف المستقبل استيعابها وفهمها.

فالشاعر في هذه الابيات نقل واقعاً وخبر عن تجربة ذاتية عاشها مع زوجته (المستقبلة) للرسالة فقد واجه صداً من قبلها عندما اشتد عتابها ولومها ليلاً إزاء ما ظهر عليه من علامات تشي بكبر سنه وتقدمه في العمر. الا ان رسالتها التعبيرية والانفعالية والحاملة لموجات من القرع واللوم وشدة العتاب لا تؤثر في الشاعر/ المرسل ولا تفعل فيه إلا من جهة تزيده جرأة على اتخاذ موقف حازم منها، فهو لا ينشغل بها أو يسيء إليها أو يعرضها للاذلال والاحتقار وإنما وضعها بين أمرين لا ثالث لهما فيقول :

وعيشك بالذي يُغنيك حتى … إذا ما شئت تنأى فبيني

إن القيمة المعتمدة في الحجة استطاعت كبح جماح النفس الغاضبة الثائرة واتخذ المرسل من خلالها موقفاً محدداً. ومن هنا يبدو جلياً للمتأمل أن هذه الحجة تقوم على مبدأ العيش معه برضى وقناعة وإلا سيقودها ذلك الفعل إلى المفارقة والرحيل. والهام في هذه الحجة

---

(١) ديوان عبيد بن الابرص، تحقيق وشرح: د. حسين نصار، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي واولاده، مصر، ط١، ١٩٥٧م : ١٣٣.

انها عدت حتمية أو مبرراً لموقف الإستخفاف والإستهزاء الذي كابد الشاعر في تغييره واصلاح أمره والرد على فعله.

ويزداد لوم العاذلة وقعاً على نفس السموأل ليخلص إلى جملة حجج تؤكد موقفه أمام عاذلته، لذا بدت لهجة التعنيف والقسوة عند محاججة العاذلة بأسلوبي الأمر والنهي للدفاع عن سلوكه الاجتماعي وتبليغ رسالته، يقول(١) :

أعـــــاذلتي ألا لا تعـــــذليني	**فكــم مــن أمــر عاذلــةٍ عصــيتُ**
دعينــي وارشــدي إن كنــتُ أغــوى	**ولا تغــوي زعمــتِ كمــا غويــتُ**
أعــاذل قــد أطلــتِ اللــومَ حتــى	**لــو أنــي منتــهٍ لقــد انتهيــتُ**
وصــفراء المعــاجم قــد دعتنــي	**الــى وصــلٍ فقلــتُ لهــا أبيــتُ**
وزقٍّ قــد جــررتُ إلــى النــدامى	**وزقٍّ قــد شــربتُ وقــد ســقيتُ**
وحتــى لــو يكــون فتــى أُنــاسٍ	**بكــى مــن عــذل عاذلــةٍ بكيــت**
ألا يــا بيــت بالعليــاء بيــتُ	**ولــولا حُــبُّ أهلــكَ مــا أتيــتُ**
ألا يــا بيــتُ أهلــك أوعــدني	**كــأني كــل ذنــبهم جنيــت**
إذا مــا فــاتني لحــمٌ غــريضٌ	**ضــربت ذراع بكــري فاشــتويت**

فالأبيات بمثابة رسالة لسانية استهلها الشاعر/ المرسل بدعوة عاذلته/ المتلقية للنص إلى الكف عن لومه وعتابه والذي لا يجد نفعاً ولا يأتي بنتيجة، ولكنه في هذه الرسالة الدعوية إنما يحدد وبدقة الحجاج عن طريق مواجهة العاذلة ومناقضتها والرد عليها وتفنيد كلامها. والواقع أن الشاعر خبر أحوال مستقبل رسالته (العاذلة) وبان له ما خفي من أمرها فعرّف لها بخصاله. فالحجة التي اعتمدها أثبتت تمتين العلاقة بين الشخص المرسل تأكيداً لثبات الشخصية، وبين المتلقية واقناعها بافعاله ودوامه كحسن

---

(١) ديوانا عروة بن الورد والسموأل، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٠م : ٨٤.

الخلق والكرم مع قربه من المحتاجين والاحساس بمواجعهم. فمجال تطبيق الحجاج ينهض على كل ما يثبت أمراً أو يقنع به، ولا يتم توجيهه إلا في سياق نفسي اجتماعي(١).

وهذه الخصال التي رصدها لها اساس في سياق الرسالة لأنها باجتماعها معاً تثبت المرجعيات الاجتماعية التي حرص على ابرازها لتلقي الأثر الفاعل والمؤثر في نفس المتلقي من جهة، ولتحقق العملية التواصلية التبليغية بين طرفي الرسالة من جهة ثانية.

لذا استطاع الشاعر برسالته الانفعالية وبأدلته الحجاجية دفع خطاب العاذلة (المعارض) والاتيان بأحداث تفند آرائها وتواجهها بحجج تناقضها، والواقع أن الشاعر تحول إلى ذات لها مستوى من التقدير والاحترام وحرص على الظهور بمظهر من لا يرد له قول ولا يفند له رأي.

وأما قوله في البيتين (السابع والثامن) فبالاضافة الى علاقة الاستنتاج التي رُبطت بما سبق فانها تقوم هي الاخرى على رغبة الشاعر في استعادة اللحظات السعيدة، وهو أمر ينسجم تمام الانسجام مع الصورة التشبيهية (كأني كل ذنبهم)، صورة تكشف الاحساس المعذب الذي حول الذات المرسلة الى ذات ممزقة بين الحاضر والماضي في محاولة لاستعادة السعادة المدبرة.

٤. السياق التواصلي للحجاج وفق السلوك الاخلاقي :

تعد الاخلاق من سمات الانسان التي يتحلى بها ويتميز بها عن سائر المخلوقات الأخرى، ولأن الاخلاق تتجسد سلوكاً وتتبدى افعالاً من خلال العلاقات الانسانية فقد وجد فيها الشعر مجالاً رحباً للتعبير عن تجلياته المتنوعة، ومحاولة للوقوف عند القيم الخلقية التي تظهر في سلوك الناس، وهكذا يسهم النظام الخلقي في ضبط سلوك الفرد داخلياً ليتحقق الاستقرار الاجتماعي.

وان تأصيل القيم الاخلاقية في نفوس الكثيرين لا يمنع من تحلل البعض من القيم الاخلاقية، فنجد عند بعض الشعراء صوراً طافحة بالحديث عن الخمرة والطرب

(١) ينظر : التداولية والحجاج –مداخل ونصوص–، صابر الحباشة، صفحات للدراسات والنشر، سوريا–دمشق، ٢٠٠٨م : ٦٩.

واللهو، وعندها يبدأ دور العاذلة في محاولة منها لتأنيبه وتصحيح مسار سلوكه، ورغم هذه النظرة لشرب الخمرة بوصفها مفسدة للاجساد مهلكة للاموال مضيعة للعقول، فقد تصدى الشاعر لعاذلته مستنداً على أدلة ومدافعاً عن موقفه فيذكر غايته من شرب الخمرة.

صور الشعر العربي قبل الاسلام بواقعية ووضوح معاقرة الشعراء للخمرة والتلذذ بها مفاخراً بشربها مقبلاً على انفاقه المال بحقها إذا دعت الحاجة اليها، يقول عبيد بن الابرص(١):

هبّت تلومُ وليست ساعة اللّاحي ... هلا انتظرتِ بهذا اللوم إصباحي

قاتلها الله تلحاني وقد عَلِمت ... أنّ لنفسي إفسادي وإصلاحي

كان الشبابُ يُلهينا ويُعجبنا ... فما وهبنا ولا بِعنا بأرباحِ

إن اشرب الخمرَ أو أورزأ لها ثمناً ... فلا محالةَ يوماً أنني صاحي

ولا محالةَ من قبرٍ بمحنيةٍ ... وكفنٍ كَسَراةِ الثور وضّاحِ

يحتج الشاعر/ المرسل في المقطوعة اعلاه من لوم عاذلته/ المرسل اليها بلفظة (هبت) في منامه ليلاً، ويستدل على رفضه للعذل في البيت الثاني منطلقاً من دعائه عليها (قاتلها الله تلحاني)، في مقابل تحقيق هدفه في الحياة والاستمتاع بالشباب قبل ادراك المنية بحجة تمثيلية في ظاهر القول ولكنه في حقيقة الأمر كرر الحجة إذ جعل إسرافه في شرب الخمر وإسراف المال على شرائها ايام الشباب يشكل دليلاً أقوى على مأساوية واقعه المعاشي والوضع النفسي المتأزم لديه. فالموت ينتظره وملاقيه لامحالة، فالحجج في الابيات الثلاثة الاخيرة وسيلة ينوع بها المتكلم خطابه ببراهين مقدمة لصالح غاية معينة. فما كان مقدمة يصبح حجة وما كان حجة يصبح مقدمة لحجة أخرى وهذه الرسالة التواصلية تطور الطاقة الاقناعية في الكلام. إذ جعل الافتخار بالخمرة والتغني بها ايام الشباب قبل ادراك الموت مقترنة بإسراف المال، وجعل التلذذ والانهماك بملذات الدنيا من الخمرة والمال سبيلاً لتحقيق السعادة قبل موته ادراكاً منه بحتمية وجود حياة ثانية يتلذذ بها بعد فنائه.

---

(١) ديوان عبيد بن الابرص : ٣٤.

ويمضي سحيم بن وثيل في تقديم صورة تتحدث عن شدة تعلقه بالخمرة والحرص على اقتنائها وقد ادرك بوعيه وتفكيره أنها أغلى من أهله، يقول(١) :

تقول حدراء ليس فيكَ سوى الـ خمرِ معيب يُعيبُهُ أحدُ

فقلتُ أخطأتِ بل معاقرتي الـ الخمرِ وبذلي فيها الذي أجدُ

هو الثناء الذي سمعتُ به لا سُبدُ مخلّدي ولا لَبَدُ

ويحكِ لولا الخمورُ لم احفل الـ ـعيش ولا أن يضمني أحدُ

هي الحيا والحياةُ واللهوُ لا أنتِ ولا ثروةً ولا ولدُ

يبدو من خلال الرسالة التواصلية بين المرسل والمتلقي أن الشاعر يرسم لنفسه طريقاً في الحياة بعد ادراكه أن كل شيء إلى فناء. فقد استطاع أن يبرز الوضع المتأزم لديه عند مواجهته للمرسل/ العاذلة في البيت الاول اللائمة للشاعر والمعيبة عليه اسرافه المال في الملذات واقباله على الفهم محاولة ارشاده إلى الطريق الصحيح.

فاذا تتبعنا رسالة الشاعر/ المرسل ومسار البرهنة في الابيات اللاحقة رأيناه يقدم حجة يرد بها اللوم الموجه اليه، وهو لوم مداره على الاستمتاع بالخمرة والتلذذ بمعاقرتها.

فالحجة هي تبيان لأهمية الخمرة لديه وهي كذلك حجة استدعت حجة ثانية تؤكدها وتدعمها، وتبين مدى سعادته ورفعة مكانته وتحتل خصوصية بالنسبة له لأنها بدت أغلى وأسمى من ذويه متخذاً منها نموذجاً يبني به واقعه المنشود.

الخاتمة :

بعد هذه الجولة في التواصل الحجاجي لشعر العاذلة قبل الاسلام، نستطيع الوصول الى جملة نتائج منها :

- ان الحجاج مرتبط باللغة إذ هو حجاج لساني ومرتبط هو الآخر بعناصر التواصل التي حدد عناصرها ياكبسون والهدف من تحقيق العناصر التواصلية في حجاج الشاعر (المرسل) لمتلقيه (العاذلة) هو تحقيق الإبلاغ والإفهام والإقناع.

---

(١) المكتبة الشاملة، الاصدار الرابع.

- إن تمظهر الحجاج في شعر العاذلة يؤكد وجود رغبة في الحوار مع (العاذلة) ومجادلتها ومحاولة اسكاتها إذ يخضعها احياناً لصور التهديد وتنفيذ الوعيد، ليترتب على ذلك الإستمالة والتأثير.
- تستمد محاورة العاذلة قوتها الحجاجية من قوة الشاعر (المرسل) لما له من سلطة تأثيرية تحكمه السيطرة على (العاذلة) المرسلة اليها ليفرض آرائه عليها للقبول بوجهة نظره والخضوع لأوامره وتنفيذ قراراته.
- إن الهدف من التواصل الحجاجي في شعر العاذلة هو إثارة موافقتها للرأي الذي يتم تقديمه، ولا تجري العملية الحجاجية من فراغ، بل يتطلب الأمر أن يكون التواصل اللساني بين المرسل والمتلقي مسموعاً، لتكتسب النصوص الوظيفية الشعرية والانفعالية والحجاجية، حتى في الحالة التي يكون فيها الشاعر متلقياً.
- إن افتتاح الشاعر قصائده –احياناً– بالحوار مع العاذلة هو تفاعل لعقد العلاقة التواصلية بين الطرفين.

Argument communication in the pre-Islamic Arabic Poetry
- Female Blamer as a Model –

Lect. Dr. Alhan Abdualla Mohammad

Abstract

It is observed that the argument communication towards the female blamer as a creative achievement related to a special communication trajectory in which the poet the sender reacts with its various effects and forms that ensure the communicative dimension for the poetical text, and make the mutual dialogue towards his female blamer/ the receptor a deliberative sound of the poet in a definite communicative and cultural context.